البعد الثقافي والفكري في غزوة نابليون لمصر

محمّد عبد الفتاح أبو طه[1]

تمهيد

زعم بعض الكتّاب والمؤرّخين، بل وحاولوا إثبات وهم مبالغ فيه، أنّ «الحملة الفرنسيّة» أيقظت مصر من رقادها، وحدَّثتها في جميع الجوانب، وهم بذلك يتعمّدون تجاهل وقائع وحقائق تاريخيّة تثبت خلاف دعواهم.

ينبغي أن نعلم أنّ الهدف الرئيس للاحتلال الفرنسي لمصر، هو هدف تنصيري بحت؛ فضلاً عن محاولات إقناع نابليون بونابرت بمساعدة الصهاينة في تكوين وطن لهم في فلسطين. قام روتشيلد بمحاولات لإقناع نابليون لتوطين اليهود، شريطة نجاحه في السيطرة على مناطق معيّنة من الشرق الأوسط الإسلامي، وهنا استجاب نابليون مستحسنًا هذا المخطّط. على أنّ المحزن والمخزي أنّ هؤلاء يحاولون تجاهل دخول الاحتلال الفرنسي الأزهر، وما أحدثه من نهب للكتب وتمزيق للمخطوطات، ويتجاهلون ما ثبت تاريخيًّا من أنّ اليهود الذين كانوا في خدمة جيش الاحتلال ساعدوهم في ذلك، وكانت هذه سابقة من نوعها وهي المرّة الأولى في تاريخ مصر التي يمتهن فيها الأزهر.

يذكر المؤرّخ والعلاّمة عبد الرحمن الجبرتي في هذا السياق: «أنّ الفرنسيّين أشعلوا النيران في الغيطان، وأرهقوا الشعب المصري البائس بالضرائب الباهظة، أخرجوا أصحاب المنازل من منازلهم واستولوا عليها، وعاثوا بالأزهر وضربوه بالقنابل، دخلوه بخيولهم

---

١. أستاذ التاريخ الحديث في جامعة الأزهر.

وربطوها بقبلته، وداسوا المصاحف بأقدامهم، وذبحوا أكثر من ٢٥٠٠ من المصريين - كما قال نابليون بونابرت في تقرير رسمي أرسله إلى فرنسا. وصحيح أنّهم الذين ذبحوا المسجونين المصريّين وألقوا بجثثهم في قاع النيل ليلاً، حتّى النساء المصريّات لم يسلمن من الذبح والسلخ على يد الجزار الفرنسي»[١].

ولا بدّ من التأكيد على أنّ الحملة الفرنسيّة حين دخلت واجهها علماء ومشايخ الأزهر، فالأزهر لم يكن في يوم ما مسجدًا للعبادة فقط، بل جامعة للعلم، كما كان مثابةً للشعب وأمنًا، يلتمس فيه الهداية ويفزع إليه المظلوم طالبًا حسر الظلم عنه، وتجلّت زعامة علماء الأزهر بأروع المظاهر أمام هذا الاحتلال الفرنسي لمصر (١٢١٣-١٢١٦هـ/ ١٧٩٨-١٨٠١م)، حيث تولّى شيوخه وطلّابه القيادة والتنظيم، وقد تحمّل الأزهر تلك الأحداث، وضحّى بالكثير والكثير، وضُرب بالقنابل، وانتُهكت حرمته، وعاث المحتلّ في أروقته وساحاته بالفساد، حتى وصل الأمر إلى إعدام الشيوخ والطلاب، وما كان هذا إلّا رفعة للدين وتحريرًا للأوطان من نير الاستعمار، فصمد العلماء والمشايخ أمام الاحتلال الفرنسي، وأخذ مشايخ الأزهر يلهبون الأنفس بخطبهم، فأدرك نابليون خطورة الأمر، واتُّفِقَ على أن مركز الثورة الحقيقي هو الجامع الأزهر، وكان الثوار قد أقاموا المتاريس، فأمر نابليون أن تُنصب المدافع على المقطم؛ لكي تُطلق المدافع على الجامع الأزهر[٢]، واتّخذ من الجامع الأزهر مركزًا لقيادة المجلس الثوري، وانطلق المؤذّنون من مآذن المساجد في القاهرة يدعون للحفاظ على دينهم والقيام ضدّ ظلم الفرنسيّين[٣].

ورغم ذلك خرج البعض ليؤسّس لفكرة التحوّل الحضاري والتحديث المصري بمجيء ودخول الحملة الفرنسيّة، وفيما يلي تفنيد لبعض الدعاوى التي أطلقها هؤلاء في ستّة مباحث:

---

١. الجبرتي، عبد الرحمن، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٢، ص٣٩٤.

٢. عنان، محمّد عبد الله، تاريخ الجامع الأزهر، ص١٥٩-١٥٨؛ وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر: تاريخ الأزهر وتطوّره، الاتحاد الاشتراكي العربي، ص٦٥-٦٤.

٣. الشناوي، عبد العزيز، صور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر، ص٥٤.

المبحث الأوّل: زعمهم أنّ الحملة جاءت بنقلة كبيرة من الناحية العلميّة

من المعلوم أنّ الاحتلال الفرنسي جاء بعدد كبير من العلماء ولكن من البدهي أن نردّ مباشرة بأنهم ما جاءوا إلاّ خدمة لجيشهم. نعم، أعدّوا وكتبوا عدّة أبحاث علميّة، تكلّمت عن القطر المصري، وسجّلوا نتائج أبحاثهم في عمل كبير وهو «وصف مصر»، جاء في تسعة مُجلداتٍ ضخمة، وصور وخرائط في أربعة عشر مجلّدًا.

كان العلماء قد أخذوا معهم ما يحتاجون من الآلات، ودرسوا وجمعوا كثيرًا من الحيوانات والنباتات والمعادن التي شاهدوها في مصر، كذلك رسموا خرائطَ مفصَّلة ودقيقة عن مختلف أقسام البلاد التي زاروها، وجمعوا معلوماتٍ كثيرة عن المباني والآثار القَديمة التي لاحظوها؛ وفضلاً عن ذلك، فإنهم ألَّفوا لجانًا علميّة عديدة، وأسَّسوا مجمعًا علميًّا -على غرار المجمع العلمي الفرنسي في باريس- سمَّوه باسم معهد القاهرة[١].

والحقيقة أنّ كلّ ما سبق كان خدمة للوجود الفرنسي العسكري كمشروع استعماري تنصيري يسعى لوضع أسس في مكان راق لهم بما فيه من إمكانات هائلة، فقد تحدّث أكابرهم قائلين: «لن نكون بحاجة على الإطلاق لأن ننقل المزارعين الأجانب باعتبارهم عبيد»[٢].

وهذا يفضح ما ضخّمه الفرنسيّون في كتبهم عن دور المجمع الثقافي في مصر؛ لتغطية فشلهم البالغ من الناحية العسكريّة، دون تقديم دليل يثبت استفادة مصر من هذا النجاح، كذلك فإنّ هذا المجمع وهؤلاء العلماء لم يستهدفوا تعليم المصريّين، خاصّتهم أو عامّتهم، وليس في مصادر الحملة ما يفيد ذلك من قريب أو بعيد، وإنما هدفهم كان واضحًا، وهو دراسة بلد تمهيدًا لاستعمارها وإنشاء مستعمرة فرنسيّة مثاليّة: كما ظنّوا[٣].

وحين كتب علماء الحملة الفرنسيّة كتابهم: «وصف مصر»، كُتب في الأساس على

---

١. الحصري، ساطع، آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع، ص٤٤.

٢. الشلق، أحمد زكريا، الحداثة والإمبرياليّة: الغزو الفرنسي وإشكاليّة نهضة مصر، ص١٥٧.

٣. الحداثة والإمبرياليّة: الغزو الفرنسي وإشكاليّة نهضة مصر، م. س، ص١٢٣.

أنّه دراسات وتقارير، ومذكرات وأوراق؛ كان الهدف من كتابتها أوّل مرة؛ الإفادة من المعلومات التي تقدّم من أجل استقرارهم ومكثهم في مصر، وقد ورد في الكتاب اسم المهندس الفرنسي جومار -المهندس والجغرافي- حيث وردت الإشارة إلى هذا الغرض في مقدّمته في جزء الدولة الحديثة من هذا الكتاب، «ومهما يكن من الجهد الذي قام به جومار من وصف طبوغرافي وخريطة تفصيليّة، فإنّ هدفهم الرئيس هو التعرّف على القاهرة وما فيها، للسيطرة عليها عسكريًّا»[١].

وممّا يجب ذكره أنّ كتاب وصف مصر الذي دوَّن نتائج أبحاث هؤلاء العلماء لم يُطبع ويُنشر إلّا بعد مرور سنواتٍ عديدة على انتهاء الحملة بالفشل المعلوم، فإن الطبع لم يبدأ إلّا بعد مرور ثماني سنين، ولم يتم إلّا بعد مرور نحو ربع قرن؛ لأن المجلَّد الأوَّل من الكتاب المذكور طُبِعَ سنة ١٨٠٩م، وأمّا المجلَّد الأخير منه فلم يُطبع إلّا سنة ١٨٢٥م؛ فضلاً عن ذلك، فإنّ هذا الكتاب لم يستَفِد منه أحدٌ من المصريّين إلّا بعد عدة عُقودٍ من السنين؛ وبناءً على ذلك فإن القول بأن هذه الأعمال العلميّة كان لها التأثير الفعَّال في النهضة المصريّة ممّا لا يُؤيِّده أيُّ دليلٍ كان[٢].

وللردّ على هذا الادعاء فإنّ مصر في أواخر القرن الثامن عشر شهدت نهضة علميّة، قبل مجيء الفرنسيّين لمصر، وكانت أهم صور التعليم «الكتاتيب» التي انتشرت في ربوع مصر، وكان التعليم فيها متاحًا لأكبر عدد من صغار السن؛ لتعليم القراءة والكتابة والحساب»[٣].

قاد تلك النهضة علماء الأزهر، وقد أشار إلى ذلك «بيتر جران»[٤] -وهي الفترة التي شهدت بوادر صحوة علميّة ثقافيّة- فقال: «إنّ قوائم المخطوطات الممتازة بـ«الجامع الأزهر» و«بدار الكتب» تمثّل مصدرًا رئيسًا؛ لرسم صورة واضحة لصحوة القرن الثامن

١. عبد الغني، مصطفى، حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسيّة والحملة الأمريكيّة، ص١٠٨.

٢. الحصري، ساطع، الحملة الفرنسيّة والنهضة المصريّة، ص٧٨٠.

٣. حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسيّة والحملة الأمريكية، م. س، ص٤٣.

٤. جران، بيتر، الجذور الإسلاميّة للرأسمالية: مصر (١٧٦٠-١٨٤٠م)، ص١٧.

عشر في مصر»، أضاف قائلاً: «لقد اكتشفت خلال هذا البحث أنّ علماء «الأزهر» كانوا في قلب عمليّة البناء الثقافي، وإذا تناولنا كتابات هؤلاء العلماء ككل نجد أن لها منطقها الذي ترسّخ بقوّة في البنية الطبقيّة»[١].

كذلك وُجدت مدرسة في «علم الفلك» وعلى رأسها العالم «رضوان أفندي» الفلكي، وقد أخذ على يديه أغلب المشتغلين بالفلك في «مصر» في القرن الثامن عشر[٢].

ومن المعلوم أنّ تلك الفترة شهدت تقدّمًا كبيراً في علم «الفلك»، حتى تشير المصادر إلى أنّ الفلكيّين المصريّين عُرفوا ببراعتهم في أعمالهم، واستخدامهم لآلات جديدة استطاعوا أن يطوّعوها لعملهم ويضيفوا إليها. وقد بلغ تقدم الفلك في مصر في نهاية القرن الثامن عشر إلى درجة أن أحدًا لا يستطيع أن يقلّل منها، وتزخر تراجم هذه الفترة ومؤلّفاتها بعشرات العلماء في هذا العلم وتفوّقهم فيه، وهناك عديد من العلماء الذين ألّفوا في علوم الرياضيات، والكيمياء، والطب، والمساحة، كذلك عرف علم الهندسة وشواهده كثيرة جدًّا في العمائر الشامخة الراقية التي وجدت أمام الأعين[٣]، أيضًا وجد في «مصر» في نهاية القرن الثامن عشر عدد كبير من العلماء الذين ألّفوا في هذا العلم، وعرف أيضًا اهتمام أهل الطبقات الارستقراطيّة بعلمي بالرياضة والفلك، ورسم عدة مزاول بـ«الجامع الأزهر»[٤].

وحتى لا يكون حديثنا دون دليل فها هو الشيخ حسن العطار[٥]، الذي تمحور جهده الإصلاحي في العلوم التطبيقيّة والعقليّة في تلك الفترة التي تواجد فيها الاحتلال

---

١. الجذور الإسلاميّة للرأسمالية: مصر (١٧٦٠-١٨٤٠م)، ص٢١.

٢. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، م. س، ج١، ص١٧٨.

٣. حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسيّة والحملة الأمريكيّة، م. س، ص٤٣، ٥٣.

٤. م. ن، ص٥١، ٥٣.

٥. هو حسن بن محمّد كتن، المولود بالقاهرة سنة (١١٨٠هـ/ ١٧٦٦م) على أرجح الأقوال، وهو يرجع لأصول مغربية، تولّى تحرير «الوقائع العربيّة» بين (١٢٤٤-١٢٤٦هـ/ ١٨٢٨-١٨٣٠م)، ومشيخة الأزهر سنة ١٢٤٦هـ وظلَّ فيها حتى تُوفي سنة (١٢٥٠هـ/ ١٨٣٥م). راجع: باشا، أحمد تيمور، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، ص٢٢.

الفرنسي، وقد اتّسمت دعوته الاصلاحيّة وتبلورت ملامحها من خلال المناداة بضرورة تطوير التعليم الأزهري من حيث المناهج ومواد الدراسة؛ وذلك بالرجوع إلى المصادر الأصليّة، وهو ما يمكن أن نُعبِّر عنه بالدعوة إلى ضرورة بعْث التراث العربي القديم، كذلك دعوته إلى إدخال العلوم العصرية، وعبارته في ذلك معروفة حيث قال: «إنّ بلادنا لا بدّ أن تتغيّر أحوالُها ويتجدَّدَ بها من المعارف ما ليس فيها»، والشيخ العطار لم يقتصر في دعوته على مجرد الدعوة بأفكاره الإصلاحية، إنما أتبع القول بالعمل، فإلى جانب تدريسه وتأليفه في العلوم العربيّة نجده يكتب في المنطق والفلك والجغرافيا والتاريخ، الطب والطبيعة والكيمياء والهندسة[١].

ففي علم الصيدلة والطب ألّف كتابًا عنوانه: «راحة الأبدان في شرح نزهة الأذهان» شرح فيه كتاب الشيخ والطبيب داود الأنطاكي نزهة الأذهان من حيث أفكاره وأغراضه، وأوضح ما فيه من أمور وأظهر بعض التناقضات التي وردت عند الأنطاكي، وكتاب الأنطاكي جاء في مقدمة وسبعة فصول وخاتمة. اشتملت على التعريف بعلم الطب وموضوعه وأقسامه، كما شرح العمليات الفيزيولوجيّة التي تتم في جميع أجهزة الجسم من قلب وتنفّس وهضم، كذلك وصف فيه الأعضاء التشريحيّة لكامل الجسم، والحكمة من جعل كل عضو على الصورة التي هو فيها، وتناول تعريف المرض وأنواعه وأقسامه وتوزّعه، وبيّن تفاصيل العلل ابتداءً بأمراض الرأس ثمّ العين والأذن والأنف[٢].

كما كانت له رسائل في الطبّ والتشريح، وهي أرجوزة شعريّة جمع فيها ما يخص التشريح، وزاد عليها ما يتعلّق بمعرفة النبض ودلالته المرضيّة، ووظائف الأعضاء والأجهزة الدمويّة. وقد شرح منظومة الشيخ العطار محمّد الطيار الكيالي[٣]: «لما كان علم الطب

١. أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، م. س، ص٢٥؛ البنداري، محمّد رضا، من رواد الأزهر الشريف في الإصلاح والتجديد الشيخ حسن العطار، ص٤٦٨، ٤٧٠.

٢. الفهد، محد سطام، كتب في الذاكرة؛ نزهة الأذهان في إصلاح الأبدان.

٣. هو محمّد بن عبد الرؤوف بن عمر بن عبد الكريم الطيار، الكيالي، عاش وتوطن في حلب، وهو طبيب، كان من أهم أعماه من شرح منظومة حسن العطار في فن التشريح، توفي عام (١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م). راجع: كحالة، عمر، معجم المؤلفين، ج١٠، ص١٦٦.

بحرًا لا يُدرك له قرار، وتيهًا واسعًا لا يُشقّ له غبار، وقد دَوَّنَ في أصوله وفروعه الأساطين من اليونانيّين، ثمّ الفحول من أطباء المسلمين، وكان ممّن ألّف فيه الإمام الأوحد الشيخ حسن العطار المصري منظومة في فنّ التشريح، وهي من أجلّ المختصرات في هذا الفنّ أردت أن أضع له شرحًا لطيفًا يُسفِر عنه النقاب، ويظهر ما خفي منها تحت الحجاب، مع زيادات على المصنّف تتميمًا للفائدة مع اعترافي بقلّة البضاعة، والعجز في هذه الصناعة، فإني في هذا الأمر كمبيّن منهج في شعاب المسالك المتوعّرة، ومقنّن قاعدة في كشف المدارك المتعسّرة»[١].

ولا بدّ من بيان أنّ اعتماد الشيخ العطار لم يكن على الجانب الأوروبي ومؤثّراته، إنّما اعتمد على المصادر الطبيّة التراثيّة العربيّة الإسلاميّة، التي تنوّعت وكان أغلبها من إفرازات المدارس الطبيّة الشرقيّة في بغداد ودمشق[٢].

وإجمالاً فإنّ العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادي شهد إنتاجًا وفيراً في المصنّفات، مع اتّساع في الموضوعات والمجالات المختلفة، تخطّت فكرة المتون، حيث وضعت إضافات وشروح غير متوقّعة في مسائل ثقافيّة[٣].

ما سبق يظهر ويرد على من يدّعي أنّ الاحتلال الفرنسي جاء بالتحديث العلمي، ومن ناحية أخرى انظر كيف تعاملوا مع أهل العلم والمؤسّسات، وما يتّضح فيما يأتي.

لقد باشر الفرنسيّون التغريب في مصر، فبدلاً من تحديثها كما ادّعى بعض الكتاب قاموا بتهجير العلماء، وخاصّة علماء الأزهر ورجاله؛ حيث اشتدّ اضطهادهم لهم في عصر الجنرال كليبر حتى اضطر بعضهم للهجرة والفرار إلى الأقاليم وبلاد الشام، فالشيخ العطار انتقل لأسيوط وظلّ لمدّة ثمانية عشر شهرًا، والشيخ شامل أحمد الطرابلسي خرج لبيت المقدس ومات فيها[٤].

---

١. الطباخ، محمّد راغب، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ج٧، ص٣٠١.

٢. عطعط، أيمن ياسين، دراسة توثيق حسن العطار لمصادرة الطبية في مخطوطة راحة الأبدان، مستخلص البحث.

٣. الحداثة والامبريالية، م. س، ص٢٧.

٤. رمضان، مصطفى محمّد، دور الأزهر في مصر إبان الجملة الفرنسيّة والقرن ١٩م، ص٢٠٦-٢٠٧.

ووصل الأمر لقتل الأحرار، لك أن تتخيّل كيف تعاملوا مع البطل سليمان الحلبي، لم يكتفوا بإعدامه، وصلت الوحشيّة في أخذه في الساحة التي تم فيها حرق يده وتثبيته في الخازوق، ووقف ضابط فرنسي كان شاهد عيان على ما حدث، وقال بالحرف الواحد، ممّا هو مسجّل في الوثائق الفرنسيّة عن سليمان الحلبي: «بُطح أرضًا، وشُقّ شرجه، وأدخل فيه الخازوق، وربطوا ساقيه وفخذيه ويديه وجسمه... ودفع الخازوق... وهو ثابت»[١].

بل انتهكوا حرمة المساجد، انظر لما ذكره الجبرتي[٢]: «دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول، وتفرّقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأورقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات، ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأحدثوا فيه وتغوّطوا وبالوا وتمخّطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه»...

كذلك ذكر أحد الكتّاب ما فعلوه في المساجد[٣] قائلاً: «لم تُصَب مباني القاهرة ومساجدها في أيّ عهد بما أصيبت به على يد الفرنسيّين من هدم وتخريب، لم يراعوا لدور العبادة والمساجد حرمة أو كرامة رغم تظاهرهم باحترام الدين وشعائر الإسلام وقت غزوهم مصر، ولم يكن لهم هم سوى إخضاع المصريّين لحكمهم بكل ما أوتوا من قوة وبطش... حوّلوا المساجد ودور العبادة والقصور إلى حصون وقلاع يقذفون منها المصريّين بالحمم والقذائف عند ثوراتهم في أثناء هجومهم على الأحياء الثائرة، بل إنهم حولوا المساجد الجامعة كـ«الأزهر» و«جامع الظاهر» إلى ثكنات تأوي إليها جنودهم

١. حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسيّة والحملة الأمريكية، م. س، ص١٢.

٢. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، م. س، ج٢، ص٣٩٤.

٣. إبراهيم، شحاتة عيسى، القاهرة، ص٢٦٨ وما بعدها.

وخيولهم غير آبهين لشعور المسلمين عامّة»...

وفي ظلّ تلك الظروف قام العلماء والطلّاب بمقاومتهم العسكريّة ضدّ الفرنسيّين، وقامت ثورة في مارس ١٨٠٠م، وأخذ الاحتلال يصبّ عليهم ألون الأذى، ويربصون بهم، وخيّم على القاهرة جوّ كئيب، واجتمع على سكّانها الأهوال والتدمير والتقتيل، وأخذت شكوك الفرنسيّين تقوى في العلماء والطلاب من الأزهر، وأنّهم المحرّك الأساسي لكل مقاومة عسكريّة[١]، وكان من جرّاء ذلك أنْ قُتل كليبر قائد الحملة الفرنسيّة على يد البطل سليمان الحلبي، مع أربعة من زملائه، وتمّ إعدامهم في محكمة ظالمة هزيلة، بعد أن ضرب سليمان وأرغم على الاعتراف الملفّق[٢]، ورغم المحاكمة إلّا أنّ التاريخ سجّل جهاده وجهاد العلماء بحروف من نور تُقرأ في كل وقت وحين.

وقد قتل الفرنسيّون الكثير من علماء الأزهر بطريقة جماعيّة؛ فضلاً عن قتل غيرهم من الشعب المصري[٣]، في جريمة صارخة سجلت في تاريخهم الأسود.

المبحث الثاني: دعوى التحديث في إدارة البلاد، ونشر الحرّيّة

وهي دعوى مردود عليها، فيدعي بعض الكتّاب بأنّ التنظيمات الإداريّة من دواوين وغيرها صنعها الفرنسيّون، ويشيرون إلى أنّ هذا كان بمثابة إشراك الأهليّين في إدارة شؤون البلاد، وتعويدهم على مبادئ الحياة النيابيّة.

والسؤال هنا ما السلطة التي خُوّلت لهذه الدواوين؟ وكيف كان يُعيَّن أعضاؤها؟ وهل خَدمَت الدواوينُ المذكورة البلادَ خدمةً حقيقة؟ وهل استَمرَّت وواصلَت أعمالها بعد جلاءِ الفرنسيين عنها؟ إن أجوبةَ هذه الأسئلة تُغيِّر رؤيتنا لهذه القضية تغييراً أساسيًّا[٤].

إنَّ مهمّة هذه الدواوين كانت تنفيذ أوامرِ الفرنسيّين، تحت مراقبة مندوبيهم، وفقًا

---

١. الشناوي، عبد العزيز، صور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر، ص٢١١-٢١٢.

٢. رمضان، مصطفى محمّد، سليمان الحلبي رمز للتكاتف المصري السوري في مقاومة الحملة الفرنسيّة على مصر، ص٩-١٠.

٣. صور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر، م. س، ص١٤٦.

٤. راجع للرد مفصلاً عن تلك الفرية وغيرها: الحملة الفرنسيّة والنهضة المصريّة، م. س، ص٨-١٢.

للتعليمات الموضوعة من قِبَلهم، وأمّا أعضاء هذه الدواوين فكانوا يُعيَّنون تعيينًا، بعد انتخابهم من قِبَل الحُكّام العسكريّين، فكانت التَّعليمات الصادرة إلى هؤلاء الحُكَّام تأمر بانتخابهم من بين الوجوه والعلماء، الذين يتمتَّعون بنفوذٍ قوي على الأهلين، مع ملاحظة كيفيّة قبولهم للفرنسيي؛ ممّا يدُل دلالةً صريحة على أنّ الغرض الأصلي من هذه التشكيلات والتنظيمات كان الاستفادة من نفوذ هؤلاء على الشعب لتنفيذ مآرب ومطامع الفرنسيّين، بعد التأكُّد من خضوعهم وموالاتهم للإدارة الفرنسيّة، فكيف يجوز لنا -والأمر كما كان- أن نرى في «إنشاء الدواوين» ما يمكن أن يُعتبر من نوع (تعويد النَّاس على الحياة النيابيّة) وما يمكن أن يُذكر بين عوامل النهضة المصريّة؟[١]

كذلك فإنّ تلك المؤسّسات كانت شكليّة وأثرها كذلك، فضلاً عن طبيعتها الاستشاريّة وتهميشها المتعمَّد، وخضوعها للرقابة من الفرنسيّين[٢]، وكفى بذلك ردًّا.

يظهر من ذلك أيضًا الجانب التغريبي، وهو إدخالهم ونشرهم للعلمانيّة، فها هو الجبرتي[٣] قال عنهم: «... فإنّ الفرنساويّة لا يتديّنون بدين ويقولون بالحرّيّة والتسوية»...؛ إذن العلمانيّة تفصل بين الدنيا والدين.

وممّا يؤسف له ما قيل بأنّ العلمانيّة حين ظهرت في المنطقة العربيّة كان مع قدوم الاحتلال الفرنسي لمصر، حيث جاء الجنود تدفعهم مبادئ الثورة الفرنسيّة التي ترفض كل ما هو ديني[٤].

كذلك ادّعى هؤلاء أن فرنسا وضعت في مصر القوانين الحاكمة العادلة، في تجاهل تامٍّ لما قدّمه علماء الأزهر من نموذج فريد في الدفاع عن حقوق شعبهم بشكل مقنّن، وُجد قبل قدوم الفرنسيّين بعامين.

---

١. راجع للرد مفصلاً عن تلك الفرية وغيرها: الحملة الفرنسيّة والنهضة المصريّة، م. س، ص١٠-١١.

٢. الحداثة والإمبريالية، م. س، ص٨٨.

٣. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، م. س، ج٣، ص١٨٥.

٤. فرج، السيد أحمد، جذور العلمانيّة: الجذور التاريخيّة للصراع بين العلمانيّة والإسلاميّة في مصر منذ البداية وحتى عام ١٩٤٨م، ص١١.

سُجِّل هذا تاريخيًّا من خلال الوثائق، فيذكر أنّ العلماء قدّموا وثيقة أجمع المؤرّخون المصريّون والأجانب على أنّها بحقّ؛ وثيقة لإعلان حقوق الإنسان قبل مجيء الفرنسيّين.

كانت ملابسات إصدار تلك الوثيقة التاريخيّة الحقوقيّة في ذي الحجة من عام ١٢٠٩م/ يونيو ويوليو ١٧٩٥م، حيث ذكر الجبرتي الواقعة فقال: «كان الشيخ الشرقاوي له حصّة في قرية بالشرقيّة، حضر إليه أهلها وشكوا من محمّد بك الألفي، وذكروا أنّ أتباعه حضروا إليهم وظلموهم، وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه واستغاثوا بالشيخ فاغتاظ، وحضر إلى الأزهر، وجمع المشايخ وقفلوا أبواب الجامع، وذلك بعد ما خاطب مراد بك وإبراهيم بك، فلم يبديا شيئًا، ففعل ذلك في ثاني يوم، وتمّ إغلاق الجامع وأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت، ثمّ ركبوا في ثاني يوم واجتمع عليهم خلق كثير من العامّة وتبعوهم وذهبوا إلى بيت الشيخ السادات، وازدحم الناس على بيت الشيخ، بحيث يراهم إبراهيم بك، وقد بلغه اجتماعهم، فبعث من قبله أيوب بك الدفتردار، فسألهم عن مرادهم، فقالوا له نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعتموها وأحدثتموها فقال: لا يمكن الإجابة إلى هذا كلّه فإنّنا فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات فقيل له هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس وما الباعث على الإكثار من النفقات وشراء المماليك...»[١].

تطوّر الأمر من مجرّد المطالبة بوقف الاعتداءات إلى حركة شعبيّة تنادي بالعدل ووضع الظلم، وسرعان ما عاد العلماء للجامع الأزهر وطالبوا -لليوم الثالث تواليًا- بالعدل وتحقيق المساواة، وهنا يقول الجبرتي: «وفي اليوم الثالث حضر الباشا إلى منزل إبراهيم بك، واجتمع الأمراء هناك، وأرسلوا إلى المشايخ، فحضر الشيخ السادات والسيِّد النقيب والشيخ الشرقاوي والشيخ البكري والشيخ الأمير -وكلّهم من الأشاعرة-... وانحط الأمر على أنهم تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم وانعقد الصلح»[٢] وكان بالشروط الآتية:

---

١. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، م. س، ج٢، ص١٦٦-١٦٧.

٢. م.ن، ج٢، ص١٦٨.

• أن يدفع أمراء المماليك ما كانوا قد اغتصبوه من الشعب، مع إرساله لغلال الحرمين التي كانوا قد امتنعوا عن إرسالها.

• أن يبطلوا المكوس والضرائب الجديدة، وألّا يفرضوا أيّ ضرائب دون وجه حقّ وبدون استشارة العلماء وزعامات الشعب.

• أن يكفّوا أتباعهم عن مدّ أيديهم إلى أموال الناس، وأن يسيروا في الناس سيرة حسنة[١].

ومن الجدير بالذكر أنّ الكتاب والمؤرّخين الذين تعرّضوا لها أشادوا بها، وبالحقوق التي نصّت عليها، فقد قال عنها الأستاذ عباس محمود العقاد: «ولو أنّها كُتبت في بعض البلاد الأوروبيّة لجاءنا خبرها مع كتب القوم في علوم السياسة الحديثة، بعنوان من تلك العناوين الكثيرة عن حقوق الشعب، أو الدستور الأكبر، أو (الماجنا كارتا)، وما إليها من مصطلحاتهم التاريخيّة»[٢]، كما وصف أحد رجال السياسيّة الفرنسيّين عريضة العلماء بأنّها وثيقة الحقوق، وأنّها تشبه وثيقة الحقوق التي أقرها البرلمان الإنجليزي سنة ١٦٨٩م، عقب ثورة ١٦٨٨م[٣].

زد على ذلك أنّ منصب قاضي القضاة مطلع القرن التاسع عشر كان للعلاّمة الشيخ أحمد العريشي الحنفي[٤]، حيث كان قاضيًا لقضاة مصر تحت مسمّى «قاضي عسكر بونابرت» بعد أن أقرع بين العلماء، فكانت أكثرية الأصوات له[٥]، ولم يكن لهم أيّ دور تحديثي أو تنظيمي، سوى نشر أهدافهم الخبيثة ونهب خيرات المصريّين، وإن كان لهم فلمصلحتهم الوقتيّة فقط.

---

١. رمضان، مصطفى محمّد، دور الأزهر في الحياة المصريّة إبان الحملة الفرنسيّة ومطلع القرن ١٩م، ص٦٠.

٢. نقلاً عن: دور الأزهر في الحياة المصريّة ١٩٨٦م، م. س، ص٦١.

٣. الشناوي، عبد العزيز، عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية، ص١٠٨.

٤. هو أحمد اللحام اليونسي، المعروف بالعريشي الحنفي، أزهري وفقيه. ولد بقلعة العريش من أعمال غزة، وبها نشأ، تعلم بالأزهر، وكان شيخًا لرواق الشوام، قال الجبرتي في حقه: «كان متيّقظًا نبيهًا وفيه قوّة استعداديّة وحافظة جيدة. للمزيد راجع: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، م. س، ج١، ص٥٣٩.

٥. الرافعي، عبد الرحمن، نظام القضاة من العثمانيين حتى محمّد علي، ص٢٦٠، ٢٦٥.

المبحث الثالث: الادّعاء بنشر الثقافة الفرنسيّة

يحاول بعض المؤلّفين التأكيد على تأثير الحملة الفرنسيّة بزعم أن مصر لا تزال متأثّرة بالثقافة الفرنسيّة، وذلك يدلّ دلالة قاطعة على عُمْق تأثير الحملة النابليونيّة، حتى وصل الأمر لقولهم: «كان للجهود التي بذلَها العلماء الفرنسيّون أبعد الأثر في مستقبل مصر الثقافي والفكري؛ إذ إن مصر شديدة الاتصال بفرنسا والتأثّر بها في هذين الميدانين، بل ووصل تأكيدهم على أنّ مصر ميدان خصب للثقافة الفرنسيّة، وأصبح الأدب الفرنسي أَحب ألوان الآداب إلى المصريّين، وأصبح الفلاسفة الفرنسيّون أئمّة الفلسفة والفكر عند زعماء النهضة والثقافة في مصر، وقد بلغ من عمْق هذا الأثَر أن الإنكليز لم يُفلحوا في محاربته والقضاء عليه، على الرغم ممّا بذلوا من جهود منذ احتلالهم لمصر[١].

لا يمكن إنكار أثر الثقافة الفرنسيّة في مصر بأنها فاقت سائرَ الثقافاتِ من وِجهة هذا التأثير الذي نؤكّد سلبيته، لكن السؤال هل كان ذلك من آثار الحملة؟.

للردّ على ذلك لا بدّ أن نؤكّد أنّ الثقافة الفرنسيّة انتَشَرتْ في سائر أقسام الدولة العثمانيّة، بل تعدت ذلك إلى الممالك المجاورة لها أيضًا، وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الثقافة سائدةٌ الآن حتى على إيران، ولم تحتج تلك الأقطار لحملةٍ عسكريّة فرنسيّة، كالتي كانت ذهبَتْ إلى مصر، وذلك يدلّ دلالة صريحة على أنّ انتشار الثقافة الفرنسيّة في الشرق الأدنى، حدَث بتأثير عواملَ عامّة وعميقة لا تمتُّ بصلة إلى الحملة الفرنسيّة التي انحصَرت بمصر وحدها، والتي لم تدم طويلاً[٢]. وحتى إن أثّرت فقد كان تأثيرها السلبي أعمّ وأشمل من الإيجابي؛ حيث إنّ ثقافتها غير منضبطة غير مقيدة بتعاليم الإسلام وضوابطه الميسّرة للتذوّق الرفيع المرهف.

في الحقيقة إنّ الحملة أحدثت أثرًا واضحًا في تغريب المرأة وسفورها، فقد أطلق

---

١. الجندي، أنور، معالم الفكر العربي المعاصر، مع دراسة من الثقافة العربيّة المعاصرة في معارك التغريب، ص١٧٩. وانظر أيضًا: آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع، م. س، ص٥٠-٥١.

٢. آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع، م. س، ص٥١

بعض العلماء على عام ١٨٠٠م بأنّه عام تحرير المرأة[١]، يعضد ذلك ما ذكره الجبرتي، ووُصف بأنّه بدايات لحركة السفور، حيث قال في تاريخه: «... منها تبرّج النساء وخروج غالبهنّ عن الحشمة والحياء، وهو أنّه لمّا حضر الفرنسيس إلى مصر، اصطحب بعض نسائه، وكانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم، وهنّ حاسرات الوجوه...، ويركبن الخيول والحمير، ويسوقونها سوقًا عنيفًا مع الضحك والقهقهة...، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء»...[٢].

كما ذكر الجبرتي أيضًا انكباب الفرنسيّين على شهواتهم وانحلالهم البالغ الذي أثّر سلبًا على المجتمع المصري، فقال: «... حاربت الفرنسيس بولاق، وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها، وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم، فزيّوهن بزي نسائهم، وأجروهنّ على طريقتهن في كامل الأحوال، فخلع أكثرهنّ نقاب الحياء بالكليّة، ولما حلّ بأهل البلاد من الذلّ والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات في حور الفرنسيس ومن والاهم وشدّة رغبتهم في النساء»...[٣].

هكذا تمّ تدمير الحياء ودمرت العاصمة، وتمّ سبي بناتها وتجويع أهلها حتّى الموت، بل وصل الأمر لضرب الشيخ السادات أمام زوجته، وامتدّ الانهيار لسائر الطبقات[٤].

والعجب العجاب أنّ هناك كثير من السياسيّين والمفكّرين الفرنسيّين وينساق خلفهم بعض من المؤرّخين من بني جلدتنا في القول إنّ الاحتلال الفرنسي حمل إلى مصر رسالة حضاريّة، حتى تساءل أحد مفكّريهم وقال: هل يمكن للثورة الفرنسيّة نصيرة الحرّيّة وحقوق الإنسان أن تحتل بلدًا آخر وتستعمره؟ ثمّ أجاب وقال لقد أجابوا عن السؤال بالإيجاب! وحجّتهم بأنّ أوروبا تتفوّق ماديًّا على مناطق كثرة في العالم؛ لأن حضارتها قائمة على العقل، وكل ثقافة لا تنتمي للعقل تكون مجرّدة من المنفعة!، وهي بذلك

١. ودخلت الخيل الأزهر، م. س، ص٣٦١.

٢. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، م. س، ج٢، ص٤٣٦.

٣. م. ن.

٤. ودخلت الخيل الأزهر، م. س، ص٣٦٥.

شرعيّة، حيث لا يمكن لأعداء العقل القيام بتنظيم الحضارة؟![١].

لقد أخذ الفرنسيّون يعملون بوعي شديد نحو التغريب كهدف أصيل في قائمة الغايات المنشودة من حملتهم، معتمدين في ذلك على استعداء المصريين على الأتراك المسلمين -وذلك في منشورات نابليون- عن طريق بعث الروح القوميّة ومفاهيم القوميّة العلمانيّة التي كانت قد برزت على سطح المجتمع الأوروبي بعد هزيمة الكنيسة في صراعها مع الملوك الزمنيّين[٢].

استمرّت الأهداف في المراحل اللاحقة -مرحلة محمّد علي وخلفائه- نحو نشر الثقافة الفرنسيّة مع تركيزها على نفس أهدافها التغريبية، وانتهت إلى ذات النتائج والتي كانت مرجوّة لديها، من التغريب والتهميش للثقافة الإسلاميّة، ومن المؤسف أن أسلمت مصر في نهاية المطاف نفسها لعناصر الغربيّين ممثّلين في الاحتلال البريطاني والعملاء، ووصل الحال لأن يريد قادتها أن يجعلوها تكون قطعة من «أوروبا» كما قال الخديوي إسماعيل، وهو ينقل مصر إلى قوانين الغرب وخاصة الفرنسيّة؛ مستبدلاً أحكامها وتقاليدها بالذي هو خير[٣].

المبحث الرابع: الادّعاء بتطوير الحياة الاقتصاديّة

بداية أكد الرحالة فضلاً عن أهل مصر ومؤرّخيها بأنّ مصر كانت تعيش في رخاء واستقرار، وأنه لم تكن لتنتظر الاحتلال الفرنسي لينقلها تلك النقلة الحضاريّة التي عاش فيها أصحاب التوجّهات الغربيّة، فهذا الرحالة الألماني «نيبور» قبل مجيء «الحملة الفرنسيّة» بربع قرن أكّد أنّه لم يجد مجتمعًا نائمًا، بل وجد مجتمعًا منعمًا بالحياة والحيويّة»[٤].

من الناحية التجاريّة ظهرت البيوت التجاريّة العائليّة الدوليّة؛ حيث أخذوا يتنقّلون في

---

١. الحداثة والإمبرياليّة: الغزو الفرنسي وإشكاليّة نهضة مصر، م. س، ص٩٨.

٢. يس، عبد الجواد، تطور الفكر السياسي في مصر خلال القرن التاسع عشر، ص٥

٣. م. ن، ص٣٦.

٤. حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسيّة والحملة الأمريكيّة، م. س، ص٨٨.

شبكات تجاريّة امتدّت إلى آسيا، وسواحل البحر الأحمر في أفريقيا، وذلك يؤكّد عظم الأثر التجاري[١].

وأضاف الرحالة «نيبور» قوله عن عدّة جوانب اقتصاديّة مهمّة في مصر قائلاً: «إنّ الآلات التي تستَخدم في ريّ الأرض بعد انحسار الفيضان هي أجدر الآلات المصريّة بالملاحظة والإعجاب، وللمصريّين وسائل مختلفة لريّ الأرض، وقد نُظّمت القنوات بين مزروعات الحدائق تنظيمًا فنيًّا جميلاً، بحيث يبدو تخطيط الحديقة على هيئة مسالك متشابكة يتنزّه بين جنباتها الناس... وعن الاستيراد والتصدير جاء أنّ الجلد الخام يعتبر من أهم البضائع التي تصدّرها «مصر»، وتقدَّر كمية المُصدَّر منه سنويًّا بسبعين أو ثمانين ألف قطعة، تصل إلى مرسيليا بفرنسا، تستورد «إيطاليا» كمّية أكبر أيضًا[٢].

وهناك حقيقتان مهمّتان الأولى: أنّ قمح مصر كان المصدر الأساسي والرئيس لسدّ احتياجات جنوب فرنسا. أمّا الثانية: أنّ جماعة التجّار الفرنسيّين كانوا عاجزين عن سداد ثمن القمح[٣].

وجدير بالذكر أنّ الفرنسيّين جمعوا الأموال قهرًا وظلمًا من المصريّين، ففرضوا على تجّار الإسكندريّة ثلاثمئة ألف فرنك يدفعونها خلال أربع وعشرين ساعة، وعلى تجّار رشيد مئة ألف فرنك يدفعونها خلال ثمان وأربعين ساعة، وتجّار دمياط مئة وخمسين ألف فرنك خلال خمسة أيام، وتجّار خان الخليلي بالقاهرة عشرة آلاف ريال يدفعونها خلال عشرة أيام، وتجّار وكالة الصابون عشرة آلاف ريال، ونقابة السقائين خمسة عشر ألف ريال، وتجّار المنسوجات الهنديّة خمسة عشر ألف ريال، وأرغم هؤلاء وغيرهم على تقديم كل هذه الأموال قروضًا، تعد الحكومة بسدادها إليهم عن طريق اقتطاعها[٤].

وفي عهد كليبر فرضوا الضرائب على السكان لسدّ العجز المالي الذي عانت منه

---

١. للمزيد يراجع: حنا، نللي، تجارة القاهرة في العصر العثماني، ص٤٣ وما بعدها.

٢. نقلاً عن: حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسيّة والحملة الأمريكيّة، م. س، ص٨٨-٨٩.

٣. الجذور الإسلاميّة للرأسمالية مصر (١٧٦٠-١٨٤٠م)، م. س، ص٣٦.

٤. قرحاني، نصر عبد الرزق، الآثار السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والعلميّة للحملة الفرنسيّة على مصر «نابليون نموذجًا ١٧٩٨-١٧٩٩م»، ج١، ص٤٧٨.

الحملة الفرنسيّة[١]، كذلك أخذ مينو في فرض ضرائب مضاعفة قدرها أربعة ملايين فرنكًا على ملاك الدور ومستأجريها والتجّار وأرباب الحرف، ومن العجيب أنهم إذا وجدوا دارًا مغلقة غاب أصحابها؛ يأخذون الضريبة من جيرانها[٢]، حتى قال الجنرال «رينيه» أدّى هذا إلى وقوع التجار وأرباب الحرف في الضيق المعيشي وإغلاق دكاكينهم وتركوا الاشتغال بالتجارة[٣]، فهل هذا تحديث في الاقتصاد أم انتكاس وخراب اقتصادي؟.

يؤكّد على ما سبق ما قاله الجبرتي بأنهم: «أغلقوا جميع الوكائل والخانات على حين غفلة في يوم واحد، وختموا على جميعها، ثمّ كانوا يفتحونها وينهبون ما فيها من جميع البضائع والأقمشة والعطر والدخان خانًا بعد خان... وإذا فتحوا مخزنًا دخله أمناؤهم ووكلاؤهم، فيأخذون من الودائع الخفيفة أو الدراهم، وصاحب المحلّ لا يقدر على التكلّم، بل ربما هرب أو كان غائبًا»[٤].

بل وصل الأمر أنّهم حين فكروا في إنشاء مصنعًا للجوخ بالقاهرة، رفضت أعضاء اللجنة الإداريّة الفرنسيّة، وعارضت قبول العمّال المصريّين بحجّة الضرر الذي يلحق الصناعة الفرنسيّة إذا عرف المصريّون أسرارها[٥]، وهذا خير دليل على تجاهل التحديث وتغريب المصريّين في الجانب الاقتصادي.

وإجمالاً فإنّ الاحتلال الفرنسي أحدث اضطرابًا في الاقتصاد دون أن يضع أي أسس لبنيان اقتصادي أو مشروعات جديدة أو أي تطوّر ملحوظ؛ بل على العكس من ذلك فإنهم هدموا وخربوا كما ذكر الجبرتي: «توالى الهدم والخراب وتغيير المعالم وتنويع المظالم وعم الخراب... هدموا تلك الأخطاط والجهات والحارات والدروب والحمامات والمساجد والمزارات والزوايا والتكايا»[٦].

---

١. جلال، إيمان السعيد، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسيّة على مصر، ص١٥٧.

٢. الرافعي، عبد الرحمن، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج٢، ص١٧٩.

٣. نقلاً عن: م. ن، ج٢، ص١٨٠.

٤. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، م. س، ج٢، ص٣٩٤.

٥. تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، م. س، ج٢، ص١٩٠.

٦. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، م. س، ج٢، ص٤٣٢.

المبحث الخامس: الادّعاء باكتشاف حجر الرشيد

انساق بعض المؤرّخين نحو القول الذي يربط بين حجر رشيد واكتشاف الفرنسيّين له، وذلك خلال اشتغال الجنود الفرنسيّين بحفر الخنادق حول مدينة رشيد، ونسبوا لشامبوليون فك رموزها، ومن العجيب أن شامبوليون ولد في ١٧٩٠م، وبذلك فهو كان في الثامنة من عمره في تاريخ نزول الحملة الفرنسيّة إلى مصر، كذلك لم يأت إلى مصر إلّا في عام ١٨٢٨م، أي بعد مرورِ أكثرَ من ربعِ قرنٍ على تاريخ جلاء الجيوش الفرنسيّة عن مصر[١].

والحقيقة التاريخيّة تؤكّد أنّ حجر الرشيد لم يكشف النقاب عن أسرار الكتابة الهيروغليفيّة كشفًا مباشرًا، بل إنّ حلّ الرموز المحفورة على الحجر المذكور لم يتيسَّر إلّا بعد مرور مدّةٍ تزيد على عشرين عامًا، وهذا يؤكّد بأنّ حلّ رموز الكتابات الهيروغليفيّة لم يكن من نتائج الحملة الفرنسيّة أو كان تحديثًا ونقل التاريخ المصري، بل إنّ هناك الكثير من العلماء قبل شامبليون قد عملوا على حلّ رموز الحجر[٢].

وجدير بالذكر أنّ العلماء كانوا قد وصلوا إلى حلّ رموز الكتابة الفارسيّة القَديمة، قبل أن يتمكّنوا من قراءة الكتابات الهيروغليفيّة، كما أنّهم توصَّلوا إلى حلّ رموز الكتابات المسماريّة واللغات السومريّة والآشوريّة والبابليّة، بعد مدّة من الزمن. وقد تمَّت جميع هذه الاكتشافات المهمّة دون أن تذهب إلى هضبة إيران ولا إلى بلاد ما بين النهرَين حملاتٌ عسكريّة مثل الحملة الفرنسيّة لمصر[٣].

بل وصل العلماء للقول بأنّ أوّل من اكتشف أسرار حجر رشيد ورموزه في العالم العربي المسلم «أبو بكر أحمد بن علي بن قيس»، المعروف بابن الوحشيّة المتوفى سنة ٩٣٠م، وذلك عن طريق أحد مؤلّفاته وأهمّها «شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام»[٤].

---

١. باقر، طه؛ سفر، فؤاد، المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة، ص٨٠٩.

٢. م. ن؛ وانظر أيضًا: سيد، عبد المنعم عبد الحليم، حجر رشيد: قصة الكشف عنه ومراحل نقله وعرض لمحاولات حل رموزه، ص٤٥-٤٨.

٣. آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع، م. س، ص٥١-٥٢.

٤. حمودي، إمام الشافعي، وآخرون: دراسات حضارية في التاريخ الإسلامي: الصناعة - الطب - الحياة العلميّة، ص١٦١.

المبحث السادس: الادّعاء بإدخالهم المطبعة العربيّة في مصر

ذكر بعض الكتّاب أنّ الحملة الفرنسيّة أدخلت أوّل مطبعة عربيّة في مصر، وترتّب عليه العديد من الآثار العلميّة والثقافيّة الحضاريّة، بل وذكروا بأنّ هذه المطبعة هي أساس مطبعة بولاق؛ لكن هذا مردود عليه؛ لأن مطبعة بولاق جاءت من إيطاليا عن طريق عربي يدعى «نيقولا مسابكي»[١].

كذلك الوثائق التاريخيّة تؤكّد أنّ مطبعة الحملة الفرنسيّة الأوروبيّة منها والعربيّة عادت إلى باريس، وكان موضوع عودة المطبعة على رأس أولويات الحكومة الفرنسيّة فقد خاطب وزير الداخلية القادة الفرنسيّين في مصر «بأن ترسل جميع الآلات والمخطوطات العربيّة وحروف المطبعة العربيّة لوزارة الداخلية، وبالفعل عادت»[٢].

هكذا يتّضح بما لا يدع مجالاً للشكّ؛ أنّ الاحتلال الفرنسي جاء بالتغريب لا التحديث وما سبق يؤكّد ذلك تفصيلاً.

---

١. عبده، إبراهيم، تاريخ الوقائع المصريّة (١٨٢٨- ١٩٤٢م)، ص١٤-١٥.

٢. م. ن، ص٢٠.

الخاتمة

بعد هذا البيان التاريخي الذي كشف زيف دعوى بعض المؤرّخين والمفكّرين حول تحديث الفرنسيّين لمصر، وإدخال الحضارة فيها فقد تبيّن إجمالاً ما يلي:

• أنّ الناظر بعين الحقيقة والصدق، يرى أنّ بلادنا قبل مجيء الفرنسيّين، قد عاشت طور التطوّر والتحديث في شتّى المجالات، والدليل على ما سبق ما قاله «بيتر جران»: «إنّ قوائم المخطوطات الممتازة بـ«الجامع الأزهر» و«بدار الكتب» تمثّل مصدرًا رئيسًا؛ لرسم صورة واضحة لصحوة القرن الثامن عشر في مصر».

• أنّ الفرنسيّين أدخلوا التغريب وأحدثوا ما يدخل تحت التغريب اصطلاحًا من التنصير والمجون، فضلاً عن سفك الدماء، وتصفية العلماء، ولما لا وقد أعلنوا ذلك لمسامع جنودهم، وأنهم جاءوا للثأر لأسلافهم المسحيّين في تلك الأرض التي وطئتها جحافل مقدونيّة وفيالق رومانيّة[١].

• كذلك فتحت الحملة الأبواب على مصراعيها للتدخّل والاحتلال الأوروبي في الدولة العثمانيّة، زد على ذلك حرصهم على دعوة اليهود لإقامة وطن قومي لهم في فلسطين ((تغريب وأي تغريب)).

• وكان أوّل دخول للعلمانيّة لمصر عن طريق الاحتلال الفرنسيّة، وفي الحقيقة إنّ أعظم ما حقّقه الفرنسيّون هو تقديم مصر للغرب، أكثر من تقديم حضارة الغرب لمصر أو التأثير في مصر والمصريّين.

---

١. جلال، إيمان السعيد، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسيّة على مصر، ص١٥٤.

• فتحت الحملة الأبواب على مصراعيها للتدخّل والاحتلال الأوروبي في الدولة العثمانيّة، فقامت إنجلترا بالسعي لبسط نفوذها في فلسطين وبلاد الشام لضمان مصالحها التجاريّة البريّة في الهند[١].

• وفي النهاية فإنّ الاحتلال الفرنسي لمصر إن أفادها فإنّه أفادها بقدر ما وبطريق غير مباشر ودون قصد، وذلك أنّ وجه الحملة الحضاري لم يكن مقصوداً به تحديث مصر.

١. الفرجات، ربيع خالد، الحملة الفرنسيّة على مصر (١٢١٣-١٢١٦هـ/ ١٧٩٨-١٨٠١م)، دراسة تحليلية في نتائج وآثار الحملة الفرنسيّة على مصر العثمانية، ص٢٥١.

قائمة المصادر والمراجع

١. إبراهيم، شحاتة عيسى، القاهرة، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ٢٠١٩م.
٢. باقر، طه؛ سفر، فؤاد، المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة، المجلد ٩، العدد ٢، وزارة الإرشاد، مديرية الفنون والثقافة الشعبية، ١٩٦٢م.

بحوث المجلّات العلميّة

١. البنداري، محمّد رضا، من رواد الأزهر الشريف في الإصلاح والتجديد الشيخ حسن العطار، مجلة كلّية الدراسات الإسلاميّة والعربيّة للبنات بكفر الشيخ، العدد الثالث، المجلد الرابع ٢٠١٩م.
٢. تيمور باشا، أحمد، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٩م.
٣. الجبرتي، عبد الرحمن، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت.
٤. جران، بيتر، الجذور الإسلاميّة للرأسمالية «مصر (١٧٦٠م-١٨٤٠م) ترجمة: محروس سليمان، مراجعة: د. رؤوف عباس، دار الفكر للدراسات والنشر - القاهرة، ط١، ١٩٩٣م.
٥. جلال، إيمان السعيد، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسيّة على مصر عرض وتحليل مع المقارنة بترجمات أخرى لنفس النص، مجلة الألسن للترجمة، كلية الألسن جامعة عين شمس، وحدة رفاعة للبحوث وتنمية المعلومات اللغوية والترجمة، العدد ٣، يوليو ٢٠٠٢م.
٦. الجندي، أنور، معالم الفكر العربي المعاصر، مع دراسة من الثقافة العربيّة المعاصرة في معارك التغريب، المجلد ١، العددان ١-٢، مطبعة الرسالة، ١٩٦٥م.
٧. الحصري، ساطع، آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع، نشر مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧م.
٨. ــــــــــــ، الحملة الفرنسيّة والنهضة المصريّة، مجلة الثقافة (مصر)، الثلاثاء ١١ رمضان (١٣٦٦هـ/ ٢٩ يوليو ١٩٤٧م)، السنة التاسعة العدد ٤٤٨.
٩. ــــــــــــ، الحملة الفرنسيّة والنهضة المصريّة، مجلة الثقافة، السنة التاسعة، العدد ٤٤٩، الثلاثاء ١٨ رمضان ١٣٦٦هـ/ ٥ أغسطس ١٩٤٧م.
١٠. حمودي، إمام الشافعي وآخرون، دراسات حضارية في التاريخ الإسلامي: (الصناعة - الطب - الحياة العلميّة) دار التعليم الجامعي، ٢٠١٩م.

١١. حنا، نللي، تجارة القاهرة في العصر العثماني، ترجمة: رؤف عباس، نشر مؤسسة هنداوي ٢٠١٧م.
١٢. الرافعي، عبد الرحمن، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، مكتبة النهضة المصريّة بالقاهرة، ط٢، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.
١٣. ـــــــــــــ، نظام القضاة من العثمانيين حتى محمّد علي، مجلة المحاماة الشرعية العدد ٣، شعبان ١٣٤٨هـ/ ديسمبر ١٩٣٠م.
١٤. رمضان، مصطفى محمّد، دور الأزهر في الحياة المصريّة إبان الحملة الفرنسيّة ومطلع القرن ١٩م، ط١، ١٩٨٦م.
١٥. ـــــــــــــ، سليمان الحلبي رمز للتكاتف المصري السوري في مقاومة الحملة الفرنسيّة على مصر، ندوة العلاقات بين مصر والشام على مر العصور، دمشق ١٦ أكتوبر ١٩٩٠م.
١٦. الشلق، أحمد زكريا، الحداثة والإمبريالية: الغزو الفرنسي وإشكالية نهضة مصر، ط١، دار الشروق بمصر، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
١٧. الشناوي، عبد العزيز، صور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر، من أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مارس-أبريل ١٩٦١م، مطبعة دار الكتب ١٩٧١م.
١٨. ـــــــــــــ، عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية، دار الكاتب العربي، سلسلة أعلام العرب (٦٧).
١٩. الطباخ، محمّد راغب، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تحقيق: محمّد كمال، دار القلم العربي بحلب، ط٢، ١٤٠٨هـ.
٢٠. عبد الحليم سيد، عبد المنعم، حجر رشيد: قصة الكشف عنه ومراحل نقله وعرض لمحاولات حل رموزه، مجلة المؤرخ العربي (اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة)، العدد ٨، مارس ٢٠٠٠م.
٢١. عبد الغني، مصطفى، حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسيّة والحملة الأميركية، مكتبة الأسرة

الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ٢٠٠١م.
٢٢. عبده، إبراهيم، تاريخ الوقائع المصريّة (١٨٢٨-١٩٤٢م)، مكتبة التوكل بالقاهرة، ١٩٤٦م.
٢٣. عطعط، أيمن ياسين، دراسة توثيق حسن العطار لمصادرة الطبيّة في مخطوطة راحة الأبدان، آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث - قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجيّة، العدد ٩٣، المجلد ٢٤.
٢٤. عنان، محمّد عبد الله، تاريخ الجامع الأزهر، ط٢، نشر مطبعة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٨م.
٢٥. فرج، السيد أحمد، جذور العلمانيّة: الجذور التاريخيّة للصراع بين العلمانيّة والإسلاميّة في مصر منذ البداية وحتى عام ١٩٤٨م، دار الوفاء، ١٩٨٥م.
٢٦. الفرجات، ربيع خالد، الحملة الفرنسيّة على مصر (١٢١٣-١٢١٦هـ/ ١٧٩٨-١٨٠١م) دراسة تحليلية في نتائج وآثار الحملة الفرنسيّة على مصر العثمانية، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعيّة، المجلد ٤٥، العدد ٤، ملحق ١، ٢٠١٨م.
٢٧. قرحاني، نصر عبد الرزق، الآثار السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والعلميّة للحملة الفرنسيّة على مصر «نابليون نموذجًا (١٧٩٨-١٧٩٩م)»، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٢٦، ٢٠١٨م.
٢٨. كحالة، عمر، معجم المؤلفين، مكتبة المثني، بيروت.
٢٩. كشك، محمّد جلال، ودخلت الخيل الأزهر، نشر الزهراء للإعلام العربي، ط٣، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
٣٠. وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر: تاريخ الأزهر وتطوره، الاتحاد الاشتراكي العربي، دار ومطابع الشعب، ١٩٦٤م.
٣١. يس، عبد الجواد، تطوّر الفكر السياسي في مصر خلال القرن التاسع عشر، نشر كتاب المختار الإسلامي، ١٩٨٧م.